نشأة الفرق الإسلاميّة

كانت المبادئ الإسلامية في حياة الرسول ﷺ واضحة المعالم، بينة الحدود. وكان المسلمون بعد أن آمنوا بالله تعالى رباً وبالإسلام ديناً وآمنوا بمحمد نبياً ورسولاً، كانوا يرجعون إليه فيما يجدّ من أمور، وما يعرض من شُبه، وكان النبي ﷺ يحذرهم عاقبة الاختلاف في الدين. وقد حدد القرآن عقائد الإسلام بآيات محكمات واضحات هنّ أم الكتاب، فاجتمعت عليها كلمة العرب بعد التفرق، وعز شأنهم بعد التمزق، وأصبحوا بفضل الله إخواناً.

ولما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ظن بعض الباحثين اختلاف كلمة المسلمين لأول مرة في شأنه، فقال قوم: إنه لم يمت ولكنه رفع كما رفع عيسى بن مريم. ولكن هذا الظن خطأ، والمشهور أن عمر بن الخطاب دهش لوفاة النبي ﷺ فقال (بدون وعي): من قال بأن محمداً قد مات قطعت رأسه، إنه لم يمت، وسيعود بعد أربعين يوماً. كما عاد موسى بن عمران، وأنه رفع كما رفع عيسى بن مريم[1].

وكيفما كان الأمر فقد أعلن الصديق ﷺ وفاة النبي ﷺ قائلاً: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ثم تلا ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: 144].

وقد وقع خلاف في موضع دفنه عليه الصلاة والسلام. أراد المهاجرون رده إلى

---

(1) الملل والنحل للشهرستاني ج1 ص 21.

مكة لأنها مسقط رأسه، ومأنس نفسه، وموطئ قدمه، وموطن أهله، وأراد أهل المدينة من الأنصار دفنه بالمدينة لأنها هجرته ومدار نصرته، وأرادت جماعة نقله إلى بيت المقدس حيث يدفن بجوار إخوانه من الأنبياء، ولكن أبا بكر ﷺ روى لهم أن النبي ﷺ قال: «**الأنبياء يدفنون حيث يقبضون**». فقبل الجميع قول أبي بكر. ودفنوه في حجرة أم المؤمنين عائشة ﷺ[1].

✡ ✡ ✡

(1) الملل والنحل للإمام أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ج1 ص21 على هامش الفصل في الملل لابن حزم.

الخلاف على الخلافَة وبَيعة الصديق

قال الشهرستاني : الخلاف في الإمامة كان أعظم خلاف بين الأمة ، إذ ما سُلَّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سلَّ على الإمامة في كل زمان ، وقد سهل الله تعالى ذلك في الصدر الأول . فاختلف المهاجرون والأنصار فيها ، وقالت الأنصار منا أمير ومنكم أمير واتفقوا على رئيسهم سعد بن عبادة الأنصاري ، فاستدركه أبو بكر وعمر في الحال بأن حضرا سقيفة بني ساعدة ، وقال عمر كنت أزور[1] في نفسي كلاماً في الطريق فلما وصلنا إلى السقيفة أردت أن أتكلم فقال أبو بكر (مه) يا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه وذكر ما كنت أقدره في نفسي فكأنه يخبر عن غيب ، فقبل أن يشتغل الناس بكلام مددت يدي إليه فبايعته وبايعه الناس . اهـ[2] .

أحس المسلمون منذ اللحظة الأولى لوفاة نبيهم بما خلفه وراءه من فراغ . كان لا بدَّ لهم من وضع خليفة لرسول الله ﷺ فاجتمع الأنصار كما في قول الشهرستاني السابق . ولما كان النبي ﷺ قد لحق بربه دون أن يلزم المسلمين بطريق يسلكونها في اختيار خليفة رسول الله ، فقد انقسم المجتمعون في السقيفة إلى فريقين ، تجلى حرص كل منهم على أن يكون الأمر له لا لغيره .

فقد رأى الأنصار أنهم أحق الناس بخلافة النبي ﷺ ، لأن الإسلام ما شق طريقه في جزيرة العرب إلا بمساعدتهم القوية التي أزاحت ما كان يعترض سبيله من عقبات ، بعد أن لبث الرسول بمكة ما يقرب من ثلاثة عشر عاماً . دعا المكيين فيها إلى دين الحق فما آمن معه إلا قليل ، وقد توفي الرسول ﷺ وهو راض عنهم ، ومقدر لجهودهم .

---

(1) أزور : أهيِّء وأحسن .

(2) الملل والنحل للإمام أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ج1 ص21 على هامش الفصل في الملل لابن حزم .

وأما المهاجرون فقد رأوا أنفسهم أول من آمن بالنبي ﷺ، وقد صبروا على الأذى معه، وهم مع ذلك رهطه وعشيرته الأقربون الذين ليس يسلس العرب لغيرهم فرأوا أنفسهم لهذا أجدر الناس بالخلافة، لا سيما وقد روى الصديق حديثاً **(الأئمة من قريش)**[1] وهكذا تعارضت رغبات المجتمعين بالسقيفة. وزلزلوا زلزالاً شديداً. وبعد حوار ومناقشة كادت تودي بوحدة المسلمين تمت البيعة لأبي بكر، لما كان يتحلّى به من قوة الحجة وحضور البديهة، ولأن الرسول الأعظم ﷺ خلفه على الصلاة فقالوا: إن الرسول ﷺ رضيه لديننا أفلا نرضاه لدنيانا.

لم يحضر علي بن أبي طالب ﷺ مؤتمر السقيفة، كما لم يحضره أحد من بني هاشم لانشغالهم بتجهيز رسول الله ﷺ. ولما بلغ علياً كرم الله وجهه خبر البيعة لأبي بكر كان في نفسه منها شيء، وتابعه على ذلك بنو هاشم، فتكوّن فريق ثالث يرى أن تكون الخلافة في قرابة النبي الأقربين مقدمين لها علياً رغم هبوطه في النسب عن درجة عمه العباس بن عبد المطلب لما لعلي من مزايا قدمته على عمه. منها: أنه تربى في حجر المصطفى صلوات الله عليه، فكان من أول الناس إسلاماً ومن أحسنهم بلاء في خدمة الدين الحنيف. ومنها: ما تحلّى به من فصاحة وعلم وشجاعة وفضل. ومنها: مصاهرته للنبي ﷺ، ومبيته في فراشه ليلة الهجرة وغير ذلك.

وكان من حجة أصحاب هذا الرأي، أنهم أقرب الناس إلى النبي ﷺ وأولو مصاهرته، فالله تعالى يقول: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾.

وفي نهج البلاغة المنسوب لعلي ﷺ: أن علياً سأل عما حدث في السقيفة. فقال: ماذا قالت قريش؟ قالوا: احتجت بأنها شجرة الرسول ﷺ فقال علي: احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة. يريد بذلك أن ثمرة قريش النَّبي، وقرابته الأقربون. فكان هذا الرأي نواة الشيعة.

---

(1) نسبه النووي في مقدمة كتابه (المجموع) إلى الصحيحين. والذي في الصحيحين (لا يزال هذا الأمر في قريش) وحديث (الأئمة من قريش) رواه البخاري في تاريخه والنسائي وأحمد من حديث أنس.

موقف علي من أبي بكر رضي الله عنهما

تضاربت الروايات في تحديد الوقت الذي بايع فيه علي كرم الله وجهه أبا بكر ﷺ. ففي الطبري روايتان[1] الأولى منهما: أن علياً سارع وبايع أبا بكر ولزم مجلسه.

والرواية الثانية: أن فاطمة والعباس رضي الله عنهما أتيا أبا بكر يطلبان ميراثهما من النبي ﷺ. وكانا يقصدان أرضه في فدك[2] وسهمه من خيبر. فقال لهما أبو بكر: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة وإنما يأكل آل محمد من هذا المال. وإني والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلاّ صنعته»[3]. فهجرته فاطمة رضي الله عنها ولم تكلمه حتى ماتت فدفنها علي ﷺ ليلاً ولم يؤذن بها أبا بكر.

وكانت وفاتها لستة أشهر من وفاة النبي ﷺ. ولما رأى علي انصراف وجوه الناس عنه خف إلى مبايعة أبي بكر، فأرسل إليه أنْ ائتنا ولا يأتنا معك أحد (كراهية محضر عمر بن الخطاب) فقال عمر لأبي بكر: والله لا تدخل عليهم وحدك. فقال أبو بكر: وما عساهم أن يفعلوا بي؟ والله لا آتينهم إلاّ منفرداً. فدخل أبو بكر على بني هاشم وفيهم علي والعباس رضي الله عنهم أجمعين، فاستقبلوه استقبالاً حسناً. فتشهد علي ﷺ ثم قال: قد عرفنا يا أبا بكر فضيلتك، وما أعطاك الله. ولا ننفس عليك خيراً ساقه الله إليك. ولكنك استأثرت علينا بالأمر، وكنا نحن نرى لنا حقاً لقرابتنا من رسول الله ﷺ ولم يزل يكلم أبا بكر حتى فاضت عيناه. ثم قال أبو بكر: والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليَّ أن أصل من قرابتي. وبعد أن أتم كلامه قال علي لأبي بكر: موعدك ظهراً للبيعة. فلما صلى أبو بكر صلاة الظهر. رقي علي المنبر فتشهد وعظم شأن أبي بكر وذكر أن تخلفه لم يكن نفاسة على أبي بكر ولا إنكاراً للذي فضله الله به، وقال: كنا نرى لنا في الأمر نصيباً. فاستبد به فوجدنا في أنفسنا،

---

(1) الطبري ج3 ص202.

(2) قرية من قرى خيبر.

(3) الطبري ج3 ص202.

ثم مد يده فبايع أبا بكر كما بايعه جميع بني هاشم. وهذا هو المشهور والصحيح.

ومع صدور ذلك من علي ﷺ فقد ظلت نفسه متعلقة بالخلافة لاعتقاده بأنه أحق الناس بها كما يظهر من كلامه، وشايعه على ذلك كثيرون ومنهم بنو هاشم وبنو المطلب، ولم يكن لهذا الاعتقاد في المجتمع الإسلامي آثار واضحة في تلك الفترة من الزمن، لسلامة موقف علي من أبي بكر، فقد وقف معه لحماية المدينة من بني عبس وذبيان قبل أن يبايع. ومن ذلك ما رواه الطبري من أن أبا سفيان صخر بن حرب قال لعلي: ما بال هذا الأمر في أقل حي من قريش؟ والله إن شئت لأملأنها عليهم خيلاً ورجلاً. فقال علي: يا أبا سفيان طالما عاديت الإسلام وأهله فلم تضره بذلك شيئاً، إنا وجدنا أبا بكر لها أهلاً. وبذل علي مجهوداً في قتال أهل الردة.

وقد كان أبو بكر ﷺ حازماً في أمره. شغل المسلمين جميعاً في حروب أعدائهم، بل هو الذي أعلن أول حرب عالمية في العالم. فقد حارب أهل الردة من العرب وأعلن الحرب على الفرس والروم، وهما أكبر دولتين في العالم إذ ذاك. فلم يبق لأحد مجالاً للتفكير بالفتنة.

خلافة عمر رضي الله عنه

كذلك الفاروق عمر رضوان الله عليه كان له من الحزم واليقظة ما جعل أمور المسلمين في عهده تستقر في خير وضع يرجوه لها كل مخلص. وقد خلّفه الخليفة الأول، ولم يدع لأحد مجالاً في بلبلة الأفكار وذلك في مرسوم قال فيه: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله ﷺ عند آخر عهده بالدنيا، وأول عهده بالآخرة، في الحال التي يؤمن فيها الكافر، ويتقي فيها الفاجر، إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم جهداً فإن بر وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه، وإن جار وبدل فلا علم لي بالغيب والخير أردت، ولكل امرئ ما اكتسب. ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[1]

(1) سورة الشعراء آية 227 راجع الكامل للمبرد ج1 ص8.

وكان قبل ذلك قد استشار عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وغيرهما.

قال الطبري: ثم أشرف على الناس وزوجه أسماء بنت عميس ممسكته فقال لهم: أترضون بمن استخلف عليكم فإني والله ما ألوت من جهد الرأي، ولا وليت ذا قربة وإني قد وليت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا. فقالوا: سمعنا وأطعنا.

هذا: ولا بد في مثل هذا المنصب من قيل قال. فقد روى المبرد في الكامل عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ أنه قال: دخلت يوماً على أبي بكر الصديق ﷺ في علته التي مات فيها فقلت له: أراك بارئاً يا خليفة رسول الله ﷺ. فقال: أما إني على ذلك لشديد الوجع، ولما لقيت منكم يا معاشر المهاجرين أشد علي من وجعي، إني وليت أموركم خيركم في نفسي. فكلكم ورم أنفه أن يكون له الأمر من دونه. والله لتتخذن نضائض الحرير وستور الديباج ولتألمن النوم على الصوف الأذربي كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان. يا هادي الطريق جرت إنما هو والله الفجر أو البجر. فقلت: خفض عليك يا خليفة رسول الله ﷺ فإن هذا يهيضك إلى ما بك. فوالله ما زلت صالحاً مصلحاً. ولقد تخليت بالأمر وحدك فما رأيت إلاَّ خيراً[1]. من هنا قطع الخليفة الأول الطريق على دعاة الفتنة.

وكان المسلمون يعتقدون وجوب طاعة الخليفة في حياته وبعد موته. كما كان عمر ﷺ حازماً موفقاً، وقد حدث في أيامه أن رجلاً يقال له صبيغ بن عسل جعل يتكلم بالمتشابه ويعض ما يلبل الأفكار، فطلبه الخليفة اليقظ وقال له: من أنت؟ فقال: أنا عبد الله صبيغ، فقال عمر: وأنا عبد الله عمر وضربه بعراجين النخل حتى أدمى رأسه، فقال صبيغ: حسبك يا أمير المؤمنين قد ذهب الذي كنت أجده في رأسي، فنفاه إلى البصرة.

وقد ورد أن عمر ﷺ أتي بشارب خمر فقال له: لم شربت الخمر؟ فقال: قضى الله عليّ ولا أستطيع رد حكم الله!! فجلده عمر ثمانين جلدة فقيل له: يا أمير المؤمنين جلد رسول الله ﷺ شارب الخمر أربعين. وجلد أبو بكر أربعين فقال: جلدته أربعين لشربه الخمر وأربعين لكذبه على الله.

---

(1) الكامل للمبرد ج1 ص5.

فبفضل تلك الشخصية الحازمة الرشيدة نعم المسلمون بالهدوء والوحدة رغم ما كان قد قرّ في نفوس بني هاشم من أن علياً ﷺ كان أولى بالخلافة من الجميع.

والتوفيق الثاني الذي عانق أمير المؤمنين عمر ﷺ أنه صاهر بني هاشم فقد تزوج أم كلثوم بنت علي ﷺ. ومن المعلوم أن العرب يحافظون على الصهر محافظتهم على الابن.

وهكذا ظلت الوحدة الإسلامية مسيطرة زمن عمر وست سنين من زمن أمير المؤمنين عثمان ﷺ.

وبخلافة عثمان بن عفان بدأت شياطين الفتنة تطل بقرونها على المجتمع الإسلامي. ذلك أن بني أمية قد أظهروا قبل البيعة لعثمان نشاطاً ملحوظاً في الدعاية لانتخابه. وقد ساعدهم في ذلك ميل الجماهير في المدينة إلى عثمان لعظيم عطائه وكثرة بذله وسابقته وأخلاقه.

وبعد أن بويع عثمان عقد اجتماعاً لبني أمية في داره، وفيه أبو سفيان صخر بن حرب وكان قد عمي فقال: أفيكم أحد من غيركم؟ قالوا: لا، فقال: يا بني أمية كان هذا الأمر في تيم وأنى لتيم هذا الأمر[1]؟ فتلقفوها تلقف الكرة، فو الذي يحلف به أبو سفيان: ما زلت أرجوها لكم ولتصيرنّ إلى صبيانكم وراثة[2].

وقد ترجمت هذه الكلمة عما في قلوب بني أمية من حرص على الخلافة بعد أن صارت إليهم، وقد وقع عثمان لكبر سنه وقلبه الطاهر تحت تأثير بني أمية، وكانت خلافته في الواقع خلافة تلك العائلة، فقد عين ابن عمه مروان بن الحكم[3] كاتم سره ونائبه في المدينة، وعين مروان الوليد بن عقبة بن أبي معيط والياً في العراق وهو أخو عثمان لأمه، كما نصّب جمعاً من أقاربه حكاماً على الولايات، فأخذ هؤلاء يعملون

---

(1) يعني أن أبا بكر رضي الله عنه هو من بني تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر.

(2) مروج الذهب للمسعودي ج2 ص 230 وشرح نهج البلاغة ج1 ص130.

(3) هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية. وعثمان بن عفان بن أبي العاص، والحكم والد مروان هو طريد رسول الله نفاه إلى الطائف.

على جمع السلطان في أيديهم ويتصرفون كأمويين لا كعرب مسلمين.

لكن عثمان ﷺ لم يكن راضياً عن جميع تصرفاتهم، وكان طاهر القلب سليم الصدر، وكان يخالفهم كلما وجد إلى ذلك سبيلاً. من ذلك ما رواه اليعقوبي[1]: من أن عثمان ﷺ اعتل علة شديدة فعهد إلى عبد الرحمن بن عوف بأن يكون أميراً للمؤمنين من بعده، وانتشر الخبر في المدينة فغضب بنو أمية غضباً شديداً.

أدى سلوك بني أمية إلى إيقاد ما كان قد خمد بينهم وبين بني هاشم من تنافس كما أغضب رجال الشورى وكان خمسة منهم على قيد الحياة، مما سهل لبذور الفتنة التي غرسها ابن السوداء[2]. أن تنمو وتنتشر.

التفرق أو نشأة الفرق أو فتنة المسلمين بمقتل عثمان رضي الله عنه

لم يكد ينتهي عصر الخلفاء الراشدين (كما قلنا) حتى حصل الخلاف الذي به انصدعت وحدة المسلمين وتفرقت كلمتهم وأصبحوا فرقاً وأحزاباً، يكفر بعضهم بعضاً، ولم يسلم من ذلك التكفير أكابر الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين.

ذلك الخلاف هو قيام فتنة عثمان أو فتنة المسلمين، وإن كانت إضافتها لعثمان باعتباره نقطة البدء، وإلاَّ فهي كارثة المسلمين جميعاً. ولهذا كان الأولى أن تسمى فتنة المسلمين وكارثتهم. والواقع أن العامل الأكبر في هذه الفتنة من عنصر أجنبي يهودي وهو (عبد الله بن سبأ اليهودي) الذي أظهر الإسلام واستبطن الكفر، وكاد للمسلمين كيداً لا زالوا يعانون آثاره ويصلون ناره، لأنه هو الذي ألب الثوار على عثمان حتى قتلوه.

وأما سلوك بني أمية كان يمكن تسويته بالتفاهم مع عثمان صاحب القلب الطاهر والإيمان المتين والمحب للعافية والسلام الذي شعاره: كن عبد الله المقتول ولا تكن عبده

(1) تاريخ اليعقوبي ج2 ص196.

(2) هو عبد الله بن سبأ اليهودي الأصل نافق في الإسلام.

القاتل. أما ذاك الخبيث (عبد الله بن سبأ) أو (عبد الشيطان بن مسبوق) هو الذي أشعل نار الفتنة وغذاها بإيحاء من اليهود الذين أرسلوه كيداً للمسلمين بعد أن أجلوا عن جزيرة العرب وفشلوا في الحرب، فلم يكن لديهم إلاَّ الحيل. وابن سبأ هذا هو الذي دس كثيراً من مبادئه الفاسدة بين المسلمين، وأضل كثيرين منهم مع طهارة طويتهم وحسن نيتهم[(1)].

اشتد الخلاف بين المسلمين من ذلك الحين وانتشر النزاع وامتد إلى جميع البلاد الإسلامية وانقسموا إلى جيشين متحاربين يُعمل كل منهما سلاحه في الآخر. وإنما كان لهذا الخلاف أثره العظيم في المسلمين لأنه متعلَق بأمر يهمهم دينياً والدين غالب عليهم بل هو العامل المسيطر على نواحي حياتهم، حيث إن مقام الخليفة عندهم كمقام الرسول عليه الصلاة والسلام، فهو الذي يقوم بجميع أمورهم الداخلية والخارجية والحربية والاقتصادية والتشريعية والقضائية، تقوى الدولة بقوته وتضعف بضعفه. وعلى كل حال لن نقف عند هذا الحد إلاَّ بمقدار ما يمس حاجتنا منه، وهو أثره فيما يتعلق بأمر (العقيدة) في هذا العصر، لأن الخلاف سينتهي إلى الحكم على مرتكب الكبيرة، وهذه المسألة كانت سبباً - كما يقول مؤرخو العقائد - في اعتزال واصل بن عطاء لدروس الحسن البصري كما سيأتي معنا إن شاء الله تعالى.

---

(1) قال الإمام تقي الدين أحمد بن عبد القادر بن محمد المعروف (بالمقريزي) في خططه ج4 ص83 حاكياً ما أحدثه ابن سبأ هذا في الإسلام، ويكنيه بابن السوداء فقال: وأحدث ابن سبأ القول بوصية رسول الله صلّى الله عليه وسلم لعلي بالإمامة من بعده، فهو وصي رسول الله صلّى الله عليه وسلم وخليفته على أمته من بعده بالنص. وأحدث القول برجعة علي بعد موته إلى الدنيا وبرجعة رسول الله أيضاً. وزعم أن علياً لم يقتل وأنه حي وأن فيه الجزء الإلهي، وأنه هو الذي يجيء في السحاب وأن الرعد صوته والبرق سوطه وأنه لا بد أن ينزل الأرض فيملأها عدلاً كما ملئت جوراً، ومن ابن سبأ هذا تشعبت أصناف الغلاة من الرافضة، وصاروا يقولون بالوقف يعنون أن الإمامة موقوفة على أناس معينين... ثم قال: وعنه أيضاً أخذوا القول بغيبة الإمام ورجعته بعد الموت إلى الدنيا كما يعتقده الإمامية إلى اليوم في صاحب السرداب وابن سبأ صاحب القول بتناسخ الأرواح، بزعم الدروز، وعنه أخذوا أيضاً القول بأن الجزء الإلهي يحل في الأئمة بعد علي بن أبي طالب وأنهم بذلك استحقوا الإمامة بطريق الوجوب، كما استحق آدم عليه السلام سجود الملائكة... ثم قال: وابن سبأ هو الذي أثار فتنة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه حتى قتل... ثم قال: وكان له عدة أتباع في عامة الأمصار وأصحاب كثيرون في معظم الأقطار فكثرت لذلك الشيعة وصاروا ضد الخوارج. وما زال أمرهم يقوى وعددهم يكثر. اهـ. المقريزي.

بيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه

لم تكن الظروف التي حصل فيها انتخاب علي بن أبي طالب ﷺ مشابهة لما كان عليه الحال في انتخاب من قبله، فإنه عقب وفاة الرسول ﷺ، كان أعلام الصحابة بالمدينة المنورة فاختلفوا قليلاً ثم ثابوا إلى الجماعة، وأجمع رأيهم على انتخاب أبي بكر، وعقب وفاة أبي بكر لم يكن ثمة مجال للخلاف لأنه قد عهد إلى عمر كما مر، فرأى المسلمون وجوب الطاعة، وعقب وفاة عمر كان قانون الشورى قد سنّ لهم فأصاب الانتخاب عثمان، فكأنّ عمر قد عهد إلى واحد من ستة يعينونه من بينهم وبيّن الحدود في المخالف[1].

---

(1) لما طعن عمر وأحس بالموت طلب إليه أن يعهد إلى خليفة من بعده فتردد وقال: إن استخلفت فقد استخلف من هو خير مني (يعني أبا بكر) وإن أترك فقد ترك من هو خير مني (يعني رسول الله ﷺ) وقال: لو كان أبو عبيدة حياً استخلفته فإن سألني ربي قلت: سمعت نبيك يقول: إنه أمين هذه الأمة. ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً استخلفته. فإن سألني ربي قلت: سمعت نبيك يقول: إن سالماً شديد الحب لله.

فعرض عليه ابنه عبد الله بن عمر فقال: حسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد. ثم كرر عليه القول فقال: رأيت أن لا أتحمل أمركم حياً وميتاً. عليكم بهؤلاء الرهط الذين قال رسول الله ﷺ: إنهم من أهل الجنة. علي وعثمان ابنا عبد مناف. وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله ﷺ. والزبير بن العوام حواريه وابن عمته. وطلحة الخير بن عبد الله. فليختاروا منهم رجلاً فإنما ولوا والياً فأحسنوا مؤازرته. وأعينوه إن ائتمن أحداً منكم فليؤد أمانته.

ثم دعا هؤلاء الرهط وقال لهم: إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راضٍ. إني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم. ولكن أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس.

ثم عين لهم الأجل الذي يتم فيه الانتخاب وهو ثلاثة أيام من بعد موته.

فلما دفن عمر جمع المقداد أهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة وقيل في حجرة عائشة رضي الله عنها. وأمروا أبا طلحة أن يحجبهم. فتنافس القوم في الأمر وكثر بينهم الكلام. فقال عبد الرحمن بن عوف: أيكم يخرج نفسه منها ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم؟ فلم يجبه أحد؟ قال فأنا أنخلع منها. قال عثمان: فأنا أول راضٍ ثم تتابع القوم على الرضى (وعلي ساكت) قال: ما تقول يا أبا الحسن؟ قال: أعطني ميثاقاً لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى. ولا تخلص ذا رحم ولا تألوا الأمة. فقال عبد الرحمن: أعطوني مواثيقكم على أن ترضوا من اخترت لكم. فتبادلوا المواثيق. وبذلك صار الأمر في عنق عبد الرحمن بن عوف، فدار لياليه يلقى أصحاب رسول الله ﷺ ومن وافى المدينة من أمراء الجنود وأشراف الناس يشاورهم، =

أما عند موت عثمان ﷺ فلم يكن الأمر كذلك، فالمدينة فيها جماعة الثوار، وليس عددهم بشيء أمام جنود الأمصار التي لم يكن لها اشتراك في الجريمة، وكان الكثير من أصحاب رسول الله ﷺ خارج المدينة، ومنهم المرابطون في الثغور، ومنهم من كان في المدينة.

كانت الكلمة العليا في المدينة إذ ذاك بطبيعة الحال لهؤلاء العابثين الذين قتلوا الخليفة ولم يكن في نظر جمهورهم خيرٌ من علي للخلافة، فكلموه في البيعة فامتنع قليلاً ثم أجاب إلى ذلك فبايعوه، كما بايعه أكثر الصحابة الموجودين في المدينة، وامتنع بعضهم انتظاراً لإقامة الحد على قتلة الخليفة[1].

حتى أن بعض من بايع قالوا لعلي ﷺ: إنا قد اشترطنا إقامة الحدود، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم، فقال: إني لست أجهل ما تعلمون ولكني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم، هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم، وهم خلالكم يسومونكم ما شاؤوا فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون؟ قالوا: لا. قال: فلا والله، فلا أرى رأياً إلاَّ ما ترونه إن شاء الله.

متاعب علي رضي الله عنه وانقسام جنده

انقسم العالم الإسلامي في مستهل خلافة علي ﷺ إلى معسكرين كبيرين،

= ولا يخلو برجل إلا أمره بعثمان. حتى إذا تم الأيام الثلاث التي حددها عمر جمع عبد الرحمن الناس في المسجد، ودعا علياً فقال عليك: عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسنة الخليفتين من بعده قال: أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي. ودعا عثمان وقال له مثل ما قال لعلي. فقال: نعم، فبايعه عبد الرحمن بالخلافة. ولما رأى ذلك علي تأخر وهو يقول: سيبلغ الكتاب أجله. ثم أقبل الناس يبايعون عثمان. ورجع علي يشق الناس حتى بايع عثمان.

(1) روي أن علياً قال لطلحة والزبير: إن أحببتما أن تبايعاني وإن أحببتما بايعتكما قالا: بل نبايعك. وتخلف عن البيعة سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وحسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدري ومحمد بن مسلمة والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وكعب بن عجرة وكان هؤلاء عثمانية ينتظرون إقامة الحد على من قتل الخليفة.

معسكر سارع إلى تقديم الولاء إلى الخليفة الجديد، ومعسكر ثان تملكه الأسى والجزع لما نزل بعثمان ﷺ، من بالغ الأذى وعظيم التنكيل، فتعالت صيحاته بطلب القصاص من القتلة الظالمين وتجاوبت أصداء ذلك في الشام ومصر ومكة واليمن.

وجد علي ﷺ نفسه بين أمرين لا ثالث لهما:

1. التعجيل بإقامة الحد بالجناة، وقد يثور بسبب ذلك أنصارهم، وقد اعتذر فقال: ماذا أفعل بقوم يملكوني ولا أملكهم. كما تقدم.
2. التأخير بإقامة الحد حتى تهدأ الأمور.

أشار عليه البعض بتأخير إقامة الحد حتى يهدأ الناس. فآثر هذا، وكان الأوفق به، والأصلح للمسلمين التعجيل بإقامة الحد (كما يراه كثير من المؤرخين) فإن تمرد أنصار الجناة كان بوسعه أن يستعين بالمطالبين بالقصاص في القضاء على ما قد يحدث من شغب، وبذلك ينتزع من خصومه أهم سلاح شهروه في وجهه، وجمعوا به الجماهير ضده باسم الدين، وليته إذ آثر التريث مع الجناة آثره كذلك مع جماعات المطالبين بالقصاص حتى يتسنى له أن يقيم الحد فتزول أسباب الخلاف.

وليت طلحة والزبير تريثا أيضاً حتى تهدأ الأمور وتستقر الدولة. حتى يتمكن من إقامة الحد.

وهكذا باتت الأيام تنذر العالم الإسلامي بشر مستطير، وأصبحت حاجة المسلمين ملحة إلى عبقرية فذة لإيقاف تيار الفتنة الجارف، وجمع كلمة المسلمين بعد أن فرقتها هذه الأحداث التي كان في الإمكان تلافيها لو صحت العزائم وخلصت النيات، غير أنه قدر غير ذلك.

اشتبك المسلمون في معركتي الجمل وصفين الأهليتين ودارت رحى الفناء فيهما على آلاف من المسلمين المتنابذين، وفي أثناء ذلك لزمت طائفة من كبار الصحابة جانب الحياد، وأبت أن تشترك في شيء من هذا الخلاف، منهم عبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة وسعد بن أبي وقاص وأسامة بن زيد وحسان بن ثابت وعبد الله بن سلام

وغيرهم ممن آثر التريث والانتظار حتى ينجلي صبح هذه الفتنة العمياء، ولم يحكموا على أي من الفئتين المتناحرتين أنها المحقّة، وأرجؤوا الحكم عليها إلى الله تعالى فكانوا بهذا نواة الفرقة التي عرفت فيما بعد بالمرجئة. (وسنذكر لمحة عنها إن شاء الله).

كانت أول هذه المعارك (موقعة الجمل) بين علي، وطلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم أجمعين، فانهزم الجميع أمام علي ثم قتل طلحة والزبير[1]، وبعد هذا حصلت

---

(1) خلاصة كارثة الجمل: هو أن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها خرجت من المدينة (وعثمان رضي الله عنه محصور) قاصدة الحج وأن تبتعد عن المدينة في هذه الأوقات. وقد علمت وهي بمكة أن عثمان قد قتل وأنه قد بويع لعلي بعده. كما كان طلحة والزبير أستأذنا علياً (بعد مبايعته) في العمرة (حيث أن موسم الحج كان قد فات) فخرجا ولحقا مكة وهنالك اجتمعا بعائشة ومروان بن الحكم وكثير من بني أمية فاجتمعت كلمتهم على أن يأتوا البصرة ويعلنوا المطالبة بدم عثمان والقصاص ممن اشترك في دمه. ثم ساروا في وجهتهم هذه، وقد أعدوا لعائشة جملاً تركبه، حتى إذا انتهوا إلى ماء لبني كلاب فعوت كلابهم على الركب فسألت عائشة عن اسم الموضع، فقيل لها اسمه الحوأب فقالت لا حول ولا قوة إلا بالله. فذكرت قول النبي صلى الله عليه وسلم كما في النهاية لابن الأثير ج1 ص456 أن النبي ﷺ قال لنسائه: (أيتكن تنبحها كلاب الحوأب) فقالت ردوني إلى حرم رسول الله ﷺ لا حاجة لي في المسير: فقالوا لها كذباً ليس هذا بالحوأب.

علم علي ﷺ بمسيرهم إلى البصرة فخرج إليهم يريد منعهم من البصرة ولكنهم سبقوه إليها وغلبوا عليها وقتلوا من بها ممن اشترك بالثورة على عثمان.

فنزل علي بالربذة. وكاتب أبا موسى الأشعري عامله على الكوفة أن يستنفر الناس. ولكن أبا موسى ثبط الناس وقام بهم خطيباً وكان في آخر خطبته: أما إذا كان ما كان فإنها فتنة صماء النائم فيها خير من اليقظان، واليقظان فيها خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الراكب فكونوا جرثومة من جراثيم العرب، فاغمدوا السيوف وانصلوا الأسنة واقطعوا الأوتار وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلي هذه الفتنة. ولكن الحسن بن علي رضي الله عنهما استنفر الناس في الكوفة فأجابوه.

وبلغ علياً كرم الله وجهه موقف أبي موسى فعزله قائلاً: اعتزل عملنا يا بن الحائك مذموماً مدحوراً.

ثم قدم علي إلى البصرة بما معه من جيش عامر. وأرسل القعقاع بن عمرو سفيراً بينه وبين عائشة وطلحة والزبير وكاد أن يتم الصلح، حتى قد ورد أن علياً خرج بنفسه حاسراً بدون سلاح ودعا الزبير إلى لقائه فخرج إليه الزبير واعتنق كل واحد منهما صاحبه، فقال له علي: ويحك يا زبير ما الذي أخرجك؟ قال دم عثمان، قال: قتل الله أولانا بدم عثمان أما تذكر يوم لقيت رسول الله ﷺ في بني بياضة، فضحك إلي وضحكت إليه وأنت معه، فقلت: أنت يا رسول الله ما يدع علي زهوه. فقال لك: ليس به زهو (إنك والله ستقاتله وأنت ظالم له) فقال الزبير: استغفر الله، والله لو ذكرتها ما خرجت. فرجع الزبير وهو يقول: اخترت عاراً على نار مؤججة. ما أن يقوم لها خلق من الطين ثم مضى منصرفاً حتى أتى واد السباع، فلحقه عمرو بن جرموز فبينما كان يصلي غدر به عمرو وقتله في الصلاة. وترك طلحة أيضاً القتال =

موقعة صفين بين علي ومعاوية رضي الله عنهما[1]، وكادت الدائرة أن تدور على معاوية وجيشه الذي أتى به من الشام وتعضه الحرب بأنيابها، فالتفت إلى حليفه عمرو بن العاص يستلهمه الرأي، فأجابه على البديهة: هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلاَّ اجتماعاً ولا يزيدهم إلا فرقة؟ قال له معاوية: نعم، قال عمرو: نرفع المصاحف على الرماح ثم نقول: ما فيها حكم بيننا وبينكم، من لثغور الشام بعد أهل الشام، ومن لثغور العراق بعد أهل العراق، فنفذت الخطة وأتت حيلة عمرو بما عجز عن إتيانه حد السيوف وأسنة الرماح، فقد صادفت هوى في قلوب فريق من العراقيين، فنادوا بوجوب إيقاف القتال، وأجبروا علياً على إيقافه مع أن الأشتر[2] كان يخوض غمار القتال بشجاعة منقطعة النظير، ولاح النظير الحاسم بين عينيه، فأمر علي الأشتر بوقف القتال وهما كارهين[3].

فدب إيقاف القتال والقبول بالتحكيم الشقاق في معسكر علي، وانقسم جنده إلى شيعة ظلوا على الوفاء له والتعلق به وإلى خوارج رفضوا التحكيم.

= فقال مروان بن الحكم رجع الزبير ويرجع طلحة. ما أبالي رميت ههنا أم ههنا ورماه بسهم فقتله. ولكن السبئية بينهم رئيسهم عبد الله بن سبأ الذي قال لهم إياكم أن تدعوا القوم يصطلحون. فإنهم لا يصطلحون إلا على رقابكم وانشب القتال فكان ما كان وعلي يقول:

إليك أشكو عجري وبجري ... وقلة حيلتي وقلة معشري

قتلت منهم مضري بمضري ... شفيت نفسي وقتلت معشري

إذن: إن السبئية هم الذين أنشبوا القتال بعد أن لاح الصلح.

مروج الذهب ج1 ص563 وما بعدها ومحاضرات الخضري ج2 ص56.

(1) كانت أم حبيبة بنت أبي سفيان وزوجة رسول الله ﷺ قد بعثت بقميص عثمان ملطخاً بدمه إلى أخيها معاوية مع النعمان بن بشير، فنصب معاوية القميص على منبر دمشق واستنفر به الناس حتى التقوا بجيش علي بصفين. قريب من الرقة.

(2) كان الأشتر على مقدمة جيش علي.

(3) حاول علي أن يقنع من رضي بالتحكيم فأرغموه على وقف القتال كما امتنع الأشتر من وقف القتال حتى أرغم من قبل فريق كبير من الجيش، بعد أن استمر الحرب نحو مائة يوم وقضى على الآلاف من المسلمين.